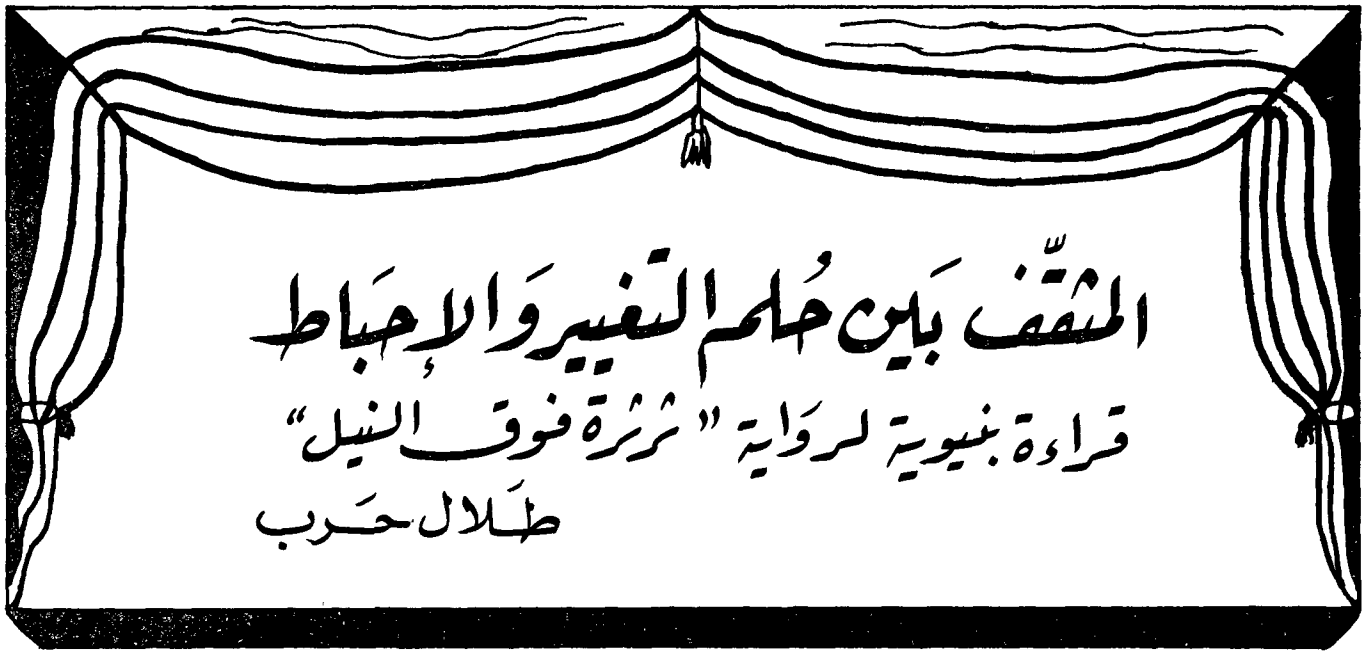

المثقف بين حلم التغيير والإحباط

قراءة بنيوية لرواية "ثرثرة فوق النيل"

طلال حرب

نشر نجيب محفوظ أهم رواياته قبل عام ١٩٦٥، تاريخ صدور رواية «ثرثرة فوق النيل» التي نقدم رؤية لها في الصفحات التالية. وقد صوّر في رواياته الخالدة «خان الخليلي» و«زقاق المدق» و«القاهرة الجديدة» و«اللص والكلاب»، بالإضافة إلى ثلاثيته الشهيرة، المجتمع المصري، وسلط الضوء على بنيته وتطلعاته ومشاريعه البديلة. فنجيب محفوظ الأديب، كغيره من المثقفين، حمل عبء التطلع إلى النهضة والمجتمع البديل اللذين كانا ولا يزالان حلماً مقتصراً بشكل أساسي على المثقفين.

ولكن ماذا استطاع نجيب محفوظ أن يفعل؟

هذا الأديب، الشاهد، الداعي، الذي ارتفع بالرواية العربية إلى مركز رفيع، ماذا استطاع أن يؤثر في مجتمعه؟

ماهي الخطوة التي أحدثها أو ساعد على إحداثها؟

لا ريب أن ثورة ١٩٥٢ كانت أهم حدث في تاريخ الشعب المصري بل العربي. ونجيب محفوظ الأديب الشاهد، الذي كتب قبلها، كتب أيضاً بعدها بثلاث عشرة سنة رواية «ثرثرة فوق النيل» وقبل حدوث هزيمة حزيران ١٩٦٧ بسنتين، فماذا وجد في مصر في هذه الفترة؟ أين أصبح الشعب المصري من حلم النهضة؟

ما هو موقع المثقفين ورأيهم فيما أحدثته الثورة؟

هذا هو ما يحدثنا عنه نجيب محفوظ في روايته «ثرثرة فوق النيل».

١ - قانون البنية

تقدم رواية «ثرثرة فوق النيل» رؤية للمجتمع المصري، تطمح ألا تكون رؤية للمجتمع العربي فحسب بل للمجتمع العالمي. في هذه الرؤية تطالعنا عناصر المجتمع وعلاقاته وتفاعلاته وتطلعاته، ويتمّ التركيز على تفاعل تيار الفعل الإيجابي الذي يطمح أن يتوصل إلى العطاء والخلق، وتيار اللافعل الذي يجسد اليأس من إمكانية التوصل إلى نتيجة جذرية وحاسمة.

عناصر هذه البنية وعلاقاتها يحكمها قانون صارم: الاحباط. هذه الخيبة المدمرة التي ترخي ثقلها الكريه على كافة التفاعلات، مبيدة كل أمل يجرؤ على التبرعم.

وهذا الاحباط ليس عرضياً أو آنياً أو غريباً، بل هو ينغرس في بنية المجتمع أفقياً وعمودياً، إذ أنه يطبع بطابعه المجتمع المصري اليوم، كما كان في الماضي، وعبر سيرورة التاريخ بكامله.

«ثرثرة فوق النيل» هي رواية الاحباط: كيفية تغلغله وخلخلته لأي دعوة، لأي مشروع إيجابي حتى توصله إلى تدميره. إنها رواية يائسة، تطمح عبر تشريح بنية المجتمع وثورته وثواره إلى أن تقدم صورة حية لهذا الاحباط الذي يدمر أكثر الأفراد تحمساً للعطاء ورغبة في بناء المستقبل، دون أن تخفي شعورها المسبق بالاحباط وإيمانها العميق بفشل مشروعها التحريضي البناء، وضياعه الآتي بلا ريب.

٢ - أشخاص الرواية

ينقسم أشخاص الرواية، من حيث الأهمية، إلى قسمين:

أ - الشخصيات: وهم الأشخاص الذين يلعبون دوراً أساسياً ويتطورون خلال السياق فتتغير مواقفهم مع سيرورة الأحداث.

ب - المفاهيم: وهم الأشخاص الذين يجسدون مفاهيم معينة في المجتمع أو عنه، فهم لا يتطورون ولا يتخذون إلا مواقف محددة لهم. إنهم مسطحون أو بالأحرى ثابتون في مواقف معينة، ذات دلالة، فهم أشخاص البعد الواحد.

أ - الشخصيات:

١ - أنيس زكي: رجل في الأربعين، ينتمي إلى أسرة ريفية، جاء إلى القاهرة ليكمل دراسته في الجامعة، لكنه لم يستطع ذلك لأسباب منها الفقر. ماتت زوجته وعديله وابنته هنية بمرض واحد في شهر واحد، فعاش وحيداً، محروماً من المرأة حتى في عالم العوّامة. حصّل ثقافة واسعة في مختلف الميادين وتوظف

بوزارة الصحة. شاهد الثورة تحوّل عن مسارها واحلامه تنهار فلجأ إلى التحشيش والرؤية العبثية.

٢- سماره بهجت: فتاة في الخامسة والعشرين، مجازة في اللغة الانجليزية. طبع التفوق بطابعه دراستها وعملها كصحافية، وهي تتطلع الآن إلى الأدب فتحلم بكتابة مسرحية. تؤمن بالعقل والإرادة والفعل الإيجابي والحب.

٣- رجب القاضي: ممثل سينمائي في الأربعين من العمر. جميل، جذاب، زير نساء بكل معنى الكلمة، يمكث مع المرأة التي يدعي حبها إلى أن يعثر على امرأة جديدة، ناجح اجتماعياً ومشهور فنياً، لكنه مع ذلك يمضي لياليه في العوامة.

ب- المفاهيم:

١- عم عبده: رجل عجوز، من الصعب تحديد سنّه، خادم العوّامة وحارسها، ضخم الجثّة قويّ البنية يحوز دائماً على اعجاب الجميع، رجل المواقف المتناقضة. فهو يؤمّ المصلين في المسجد ويشتري لأفراد العوامة المخدّرات، ويغيّر ماء الجوزة ويفتّش عن مومس لأنيس، حتى وإن كان قد توضّأ للصلاة.

٢- ليلى زيدان: امرأة في الخامسة والثلاثين، معتدلة القامة، ذهبية الشعر، متخرّجة من الجامعة الأميركية، تعمل مترجمة بوزارة الخارجية. مثقّفة ومتحرّرة. جاء بها رجب إلى العوّامة وبقيت فيها. دفعت غالياً ثمن تحرّرها إذ بقيت عانساً رغم جمالها ومؤهلاتها. عضوة في مجلس التحشيش.

٣- سنية كامل: إمرأة متزوجة ولها بنت وعدة أولاد، تؤمن بحرّيتها وكرامتها. كلما خانها زوجها هجرته وخانته مع صديقها علي السيد. تتوق إلى رجل يحبّها ويحترمها. وهي أم تحب أولادها ولا تنساهم حتى وهي غارقة في «غيبوبة الحب والسطل»، كلما عادت إلى العوّامة، تنضم إلى مجلس التحشيش.

٤- سناء الرشيدي: فتاة دون العشرين، سمراء، تدل ملامحها على الخفة. طالبة في كلية الآداب، قسم التاريخ. وتطمح إلى أن تصبح ممثلة. جاء بها رجب إلى العوّامة فانضمت بسرعة إلى مجلس التحشيش.

٥- أحمد نصر: موظف ذو مركز هام ودراية عميقة بالخبرات التجارية من بيع وشراء. متزوج وله ابنة، لا يخون زوجته أبداً. مؤمن يصلي ويصوم وهو في الوقت نفسه من اعضاء مجلس التحشيش.

٦- مصطفى راشد: محام معروف، ساخر وخفيف الروح. متزوج من مفتشة بوزارة التربية، لكنه لا يحبها ويقول إنه يفتقد انموذجه المفضل من النساء. من أفراد مجلس التحشيش.

٧- علي السيد: ازهري النشأة، متخرج من كلية الآداب ويتقن اللغة الانجليزية، له زوجتان، القديمة من القرية والجديدة من القاهرة. ناقد فني معروف لكنه «يقيم أسسه الجمالية على المنفعة المادية، ولا يقول الحق إلا إذا خانه الحظ، فينقلب هجاء ساخراً بلا رحمة» يحلم بمدينة خيالية فاضلة، من أفراد مجلس التحشيش.

٨- خالد عزوز: أديب من كتاب القصة القصيرة، يؤمن بمذهب الفن للفن ويدعو للإباحية. متزوج وله ولد وبنت، وهو عشيق ليلى زيدان منذ أن تركها رجب. يعيش حياة رغدة من دخل عمارة ورثها.

٩- رؤوف: ممثل جذاب وجميل. خطب سناء بعد أن تخلى عنها رجب الذي أكد أن الزواج لن يتم. من الذين يحششون، لكنه ليس من أفراد المجلس.

١٠- موظفو وزارة الصحة: نموذج لموظفي الدولة من المدير العام إلى رئيس القلم إلى الكتبة والساعي. يقومون بعمل روتيني تافه. وينشطون ساعة المغادرة. يلاحظ تسلّط الرئيس وتزلّف المرؤوسين. يتحاشاهم أنيس ولا نلمح أي تواصل بينه وبينهم.

١١- رجل عجوز مجهول الهوية. في الخمسين من العمر، يصدمه رجب بسيارته ويقتله.

بالإضافة إلى الشخصيات والمفاهيم، هناك راوٍ للأحداث لا يمتلك أي وجود مادي، مما يشير إلى كونه الكاتب نفسه، نجيب محفوظ، الذي يلتزم الرواية من زاوية أنيس زكي، مختاراً من أقواله وأفكاره ما يتلاءم ورؤية القصة، دون أيّ تدخل من جانبه يؤثر على مجرى الأحداث أو بلورتها.

★ ★ ★

بعد أن تعرّفنا على أشخاص الرواية نستطيع أن نسجل الملاحظات التالية، عن رواد العوّامة خاصة:

١- جميعهم مثقفون باستثناء شخص واحد (عم عبده) الذي لا يشارك في التحشيش.

٢- النسبة الكبرى هي الفن، فهناك ممثل وأديب وناقد فني وصحافية ناقدة ذات طموحات أدبية وفتاة ذات طموح تمثيلي. وهو ما يجعل الذين يدورون في فلك الفن نصف المثقفين من رواد العوّامة.

٣- جميعهم يعيشون من غير ضائقة مالية، وإذا كان أنيس يتقاضى مرتباً زهيداً فإن اصدقاءه يتكلفون بدفع باقي التكاليف.

٤- جميعهم من الطبقات الشعبية.

٥- يطبع الاحباط أغلبهم بطابعه على الصعيد العاطفي أو الاجتماعي أو المادي أو الفكري أو الفني، وهو إن خفي عند بعضهم، فربما لعدم توفر المعلومات وليس لأنه غير موجود، ويرجّح ذلك أنه واضح وجلي عند من تتوافر المعلومات عنه كأنيس وليلى زيدان ومصطفى راشد وسنيه كامل.

٦- تتمتع نسبةٌ عالية منهم بمركز اجتماعي لائق وشهرة بدليل استخدام نعت «المعروف» (مع «أل» التعريف).

٣- ميدان التفاعلات

تجري أحداث الرواية بشكل أساسي في عوّامة راسية على النيل، ولكن ثمة أحداثاً أخرى تجري في المجتمع ونطّلع عليها مباشرة أو غير مباشرة على لسان أشخاص الرواية.

٣- ١ المجتمع:

المجتمع الذي يطالعنا هو المجتمع المصري، ونتعرف على

مدينة القاهرة التي تجري فيها الأحداث فما ترد إشارة بسيطة عن الريف المصري، وما نراه من المجتمع هو أماكن مغلقة... مكاتب الوزارة حيث يعمل أنيس. غرفة سكنه أثناء تعلمه في القاهرة بعد قدومه من الريف. وإذا طالعتنا أمكنة عامة مفتوحة مثل شارع النيل أو طريق سفارة، فإن انقطاع العلاقات بين أفراد العوّامة أو بالأحرى أنيس وأفراد المجتمع يحيله إلى مكان مغلق تختنق فيه الحياة وتخنق رواده. وهذا المجتمع يعوم في زمن سلبي تماماً. فمع أنه يؤرخ لفترة تالية للثورة التي طرحت الاشتراكية بكل ما حملته من آمال في بناء مجتمع أكثر عدالة وسعادة، نراه يشير إلى تحويل مسار الثورة وخنق كل الطموحات التي تخلقها الشعارات، مما يعيد وضع المجتمع في السياق السلبي العام الذي يسبح فيه ماضي هذا المجتمع وحاضره ومستقبله على ما يبدو.

معالم هذا المجتمع سوداء كالحة، فالثورة التي انتظرها المجتمع، اضحت وسيلة البعض لتحقيق المكاسب الهائلة، وبدلاً من تأمين العدالة، فرض القمع والإرهاب فحفل المجتمع بالأكاذيب والنفاق والتزلف والانتهازية والوصولية، بانتظار غد مشرق لن يأتي.

في هذا المجتمع، تُسحق المرأة سحقاً تاماً، فهي كما تبدو لنا إما فتاة متحررة تدفع غالياً ثمن جرأتها على كسر القيود التي يكبلها بها المجتمع: عدم الزواج والذبول في الظل، وإما زوجة يجمع معها زوجها زوجه أخرى ويخونها أيضاً، أو تموت من المرض مع ابنتها دون أن يستطيع زوجها أن يفعل شيئاً. وإذا كانت سمارة خارج هذا الإطار فلأنها خاضعة لقيود المجتمع من جهة، فلا تتحرك إلا ضمن الحدود المسموح بها، ولأنها أيضاً غير مرتبطة برجل. الاستثناء الحقيقي هو زوجة أحمد نصر ولكننا لا نعلم عنها إلا القليل جداً، وهو أن زوجها رجل مؤمن ولا يخونها مطلقاً.

صورة الرجل لا تقل سواداً عن صورة المرأة: فهو إما ذئب كرجب، أو قذر كعلي السيد، أو انتهازي كخالد، أو متزلف كجمهور الموظفين، أو متسلط كالمدير العام أو مسحوق كأنيس.

- سمارة بهجت: بطلة هذا المحور بلا شك، فهي تجسد قمة الطموح إلى الفعل والتأثير بالشعب في محاولة جاهدة لبعث الشعلة في أفئدة ابنائه وإعادة بنائه، إن على صعيد الفن عبر كتابة مسرحية تحارب اللافعل والشعور بلاجدوى القيام بأي عمل أو بمقارعة أهم أركان هذا التيار، تيار اللافعل واللاجدوى، المتمثل في عالم العوّامه. فما هي أهم مميزات هذه البطلة؟

١- فتاة مثقفة.
٢- صحافية نشيطة ذات طموح أدبي.
٣- تؤمن بالحب وقدسيته ولكن ضمن الحدود المسموحة.
٤- لا تقدم منهجية أو نظرة متكاملة، مما يعني أنها لا تمتلكها أو أنها تتبنى نظرة الثورة القائمة.
٥- تلح على العقل والإرادة.
٦- تدعو لتبني الروح العلمية وتعتبر أن العلم هو طابع العصور الحديثة كما كان الدين طابع العصور القديمة.
٧- تقوم ثوريتها على محاربة الاتجاه العبثي ودعوة الأفراد إلى الفعل الإيجابي.

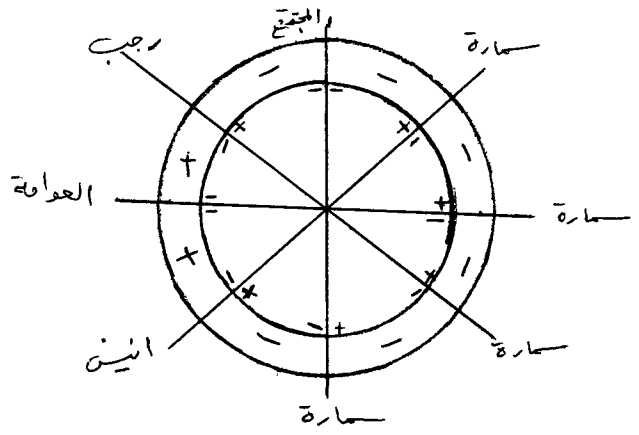

٨- دراسة وضع سمارة يوضح على الشكل التالي:

فسمارة التي تعتبر عالم العوامة وضعية سلبية تعيق حركة المجتمع العمومية المتجذرة، تثق بنفسها وبمنهجيتها ثقة تامة، وهي تعتبر أنيس كالعوامة سلباً محضاً، بينما ترى في رجب جانباً ايجابياً تراهن عليه في تحويله إلى البطل المنشود. هذه الرؤية تظهر تمتع سمارة بوضعية قوية جداً، إذ هناك ست علامات ايجابية (+) إلى جانب علامتين سلبيتين (-).

٣- ٢ العوامة: راسية على شاطىء النيل بين تهديدين: الغرق والكفر أو الغرق في الدنيا والغرق في الآخرة، تنفتح على حديقة صغيرة من جهة وعلى النيل من الجهة الثانية. وبالرغم من وجود ثلاث غرف فيها، فإن جميع الأحداث فيها تحدث في مكان مفتوح، في الشرفة حيث يعقد المجلس، في زمان حيادي هلامي يقع في حقيقته خارج أي زمن، آملاً أن يؤسس زمانه الخاص ولكن بلا فائدة، فهو يتأثر بشدة بالزمان السلبي الذي يهيمن على المجتمع.

في العوامة شيء من التعاون والتآلف بين افرادها الذين يحاولون أن يرفعوا الغبن اللاحق ببعضهم من ذوي الدخل القليل، ولكنهم غير متساوين، فبعضهم يحظى بوضع أكثر اشباعاً وبعضهم يغرق في الحرمان. ولكنهم بشكل عام يعيشون في عالم أكثر رقة وأقل قسوة. المجلس الذي ينعقد ليلاً في العادة، نجد فيه عدداً من المثقفين الباحثين عن متنفس لهم ومهرب من الثقل الذي يسحق الذات والمجتمع، بل يدمر العالم بأسره، مما أدى بهم تحت وطأة الاحباط المرعب، إلى الايمان بلاجدوى القيام بأي عمل، فما هو قائم كان وسيبقى أبداً.

- أنيس زكي:

بطل هذا المحور بلا شك، فهو أغنى شخصية في عالم العوامة

وفي الرواية كلها، وهو شخص ريفي جاء المدينة، كي يتابع تحصيله العلمي في الجامعة، لكنه فشل في ذلك لأسباب منها وضعه الاجتماعي البائس. لكنه إن فشل في نيل الشهادات فقد نجح في ميدان الثقافة، فقد غرف من معينها، ومن شتى فروعها تقريباً فتوفرت له ثقافة واسعة وعميقة أفقياً وعمودياً. وهذه الثقافة جعلته لا يتحسس فقط بشكل عميق ومتميز وضعه كفرد في مجتمع وفي العالم وكإنسان، بل مسؤوليته الكبرى تجاه ما يحدث والدور الذي يجب أن يقوم به. ولكن الاحباط المدمر والشامل طبع حياته. ومن ثم شخصيته بطابعه، فقد كلّل أعماله وجهوده وأحلامه. وفيما يلي محاولة لتلمّس احباطاته:

١- إحباط جامعي: وهو أقل أشكال احباطه قساوة، إذ استطاع أن يتلافاه بتحصيل ثقافة واسعة، ولكن عدم حصوله على شهادات جامعية أثر تأثيراً كبيراً على وضعه الوظيفي وبالتالي الاجتماعي والنفسي.

٢- احباط عملي وظيفي: عمله في وزارة الصحة حصل عليه بمساعدة أحد أساتذته، أي أنه لم يتوظف بناء على مؤهلاته، كما أن نوعية العمل وماهيته صدمتا طموحه وطاقاته، فإذا هو قابع في دوامة، تدعي أنها حركة، بينما هي عبارة عن دائرة تعيد المرء دائماً إلى حيث انطلق. فلا حركة للصادر والوارد، بل عليه أن يعيد ما كتب، وهو قادر على إعادته حتى غيباً، مما يشير إلى تفاهة العمل وشدة تكراره، بحيث أنه قد حفظه عن ظهر قلب.

٣- احباط عاطفي: فقد ماتت زوجته باكراً جداً، هي وطفلته في شهر واحد، من مرض واحد فعاش محروماً من المرأة في المجتمع، وتابع مسيرة حرمانه في العوامة. فكلما اقترب من امرأة تصرخ في وجهه «لست بغياً» فيعود إلى البغايا باحثاً عن لحظة من اللذة، لا يصفها أبداً، مما قد يعني عدم حصوله على أكثر من إخماد لعاطفته.

٤- احباط ثوري: لقد شارك أنيس في التظاهرات، وكاد يُقتل يوماً في سبيل الثورة والاشتراكية، وإذا به يفاجأ بعد تمام الثورة أن لا اشتراكية هناك بل كذب وزيف وسرقة المكاسب وثروات الشعب مجدداً. فاذا كانت هذه الثورة التي حلم العديد بها لم تسفر عن نتيجة ايجابية تذكر فأية ثورة ستستطيع تحقيق احلام الشعب؟

٥- احباط اجتماعي: المجتمع بكامله خنوع إلى درجة التواطؤ. فلا أحد يتحرك، لا أحد يرفض، الكل ينتظر، يتزلف لرئيسه، يكذب، يغش، يتعهر، يعهّر تاريخه في سبيل البقاء والمنفعة المادية الفردية، بانتظار (أو بدون انتظار) فجرٍ لن يأتي.

٦- احباط تاريخي: ثقافة أنيس الواسعة برهنت له أن ما يعانيه، ليس حالة فريدة فهو، كانسان مصري، عاش دائماً في الوضعية نفسها، إذ أن تاريخ بلاده تاريخ دام مليء بالظلم والعهر واللاعداله، منذ أيام الفراعنة وكليوباتره وقصتها مع أباطرة الرومان إلى هارون الرشيد والمماليك، وصولاً إلى الفترة الحالية.

٧- احباط عالمي: بعد يأسه من مجتمعه، ربما أنيس إلى الخارج، إلى العالم الرحب فوجد الوضعيه نفسها، استغلال وتعدٍّ وظلم، فالعالم بأسره قائم على هذا الأساس الدامي.

٨- احباط انساني: في قمة بحثه، وصل أنيس إلى الإنسان، إلى كيفية وجوده ومعنى وجوده وغايته، فلم يجد أي أمل له، بل لم يجد أي أمل لأي كائن حي، فهو يسير بخطاه نحو الموت في عالم ماهيته الفوضى «والصرخة التي هزئت من كمال الأفلاك» (ص ١١٨)؛ حتى الهاموش يندفع إلى المصباح بشكل يدعو للعجب. وهكذا نفهم صرخة أنيس الفجائية: «لماذا توجد حركة؟ وأي حركة..» (ص ١٥٦). ما دام الموت والدمار والظلم والاستبداد بانتظار الجميع. لكن أنيس، في هذه الظلمات كلها، يتوقف عند نقطة أخيرة يرفض رفضاً باتاً التخلي عنها: ثوريته. فهو يصر عليها إصراراً شديداً، فهو إذ فشل في تحقيق مبادئها في مجتمعه، فإن عالم العوامة والتحشيش، يؤمنان له فلتاناً دائماً من جلاديه، وغياباً عن عالم صدمه بواقعه القاسي ولم يترك له أي أمل بغد أفضل. وبقدر إحساسه بمأساوية الوضع، كان لجوؤه إلى المخدر، وبما أن أحساسه كان كبيراً يقارب الاستحالة، فإن تأثير المخدر عليه كان يمتد طوال اليوم فلا يكاد يتحرر منه لحظة. لإيمانه العميق بلاجدوى أي عمل. فكل ثورة، كل رفض لن يؤديا إلا إلى نتيجة سلبية، وهو ما حدث عندما قابل المدير العام وهو متحرر من تأثير المخدر.

أنيس رجل مبادىء، لكنه تأكد أن أي عمل لن يؤدي إلى نتيجة ايجابية، لفرديته، وبما أنه غير مستعد أن يتخلى عن مبادئه، فهو يلجأ إلى المخدر كي يخمد انفاس ثورته (فالمخدر طبياً كان أم غير طبي يقوم بتعطيل قوى ومنع الاحساس بأمر). لكنه حتى تحت تأثير المخدر، لا يرحل إلى عوالم سعيدة بل يتعمق في أزمته ويزداد انسحاقاً، فتكسب لائحة احباطاته احباطاً جديداً، وتكتمل الدائرة التي تلتف حوله، وتحبسه داخلها.

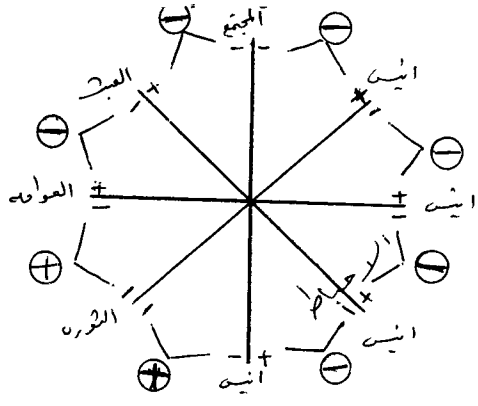

- إن دراسة وضعية أنيس توضح السلبية الكبيرة التي يغرق فيها، فهناك ست علامات سلبية (-) وعلامتان ايجابيتان فقط (+) وهكذا يقبع أنيس، في هذا المجتمع السلبي، وفي هذه الثورة السلبية، في أحضان العبث الذي يقيه من المأساوية المطلقة، كما تؤمن له العوامة توازناً مفقوداً يستحيل العثور عليه خارجها لأمثاله.

٣ - ٣ المجتمع - العوامة

قدمت لنا الرواية بيئتين، عالمين: المجتمع والعوامة، فما هو طابع العلاقة بينهما؟ نلاحظ أن عالم العوامة، يشبه المجتمع في نقاط كثيرة، ففيه احباط كبير يعصف بالافراد (أنيس وليلى) وانقسام فئوي كبير يقسم الأعضاء إلى قسمين، الأول قليل العدد جداً ويعيش في بحبوحة كبيرة (رجب) والثاني أغلبية تعيش في الحرمان (أنيس ومصطفى) أو في بحبوحة أقل بكثير (علي السيد وخالد عزوز) كما نلاحظ وجود الاستغلال والكذب والنفاق (رجب وعلي السيد) فضلاً عن الخوف (الخوف من البوليس) والصعوبة (صعوبة شراء المخدر). لكن عالم العوامة يحتوي أيضاً على جوانب نقيضة للمجتمع، فهو عالم مترجرج، يعيش فوق الماء بينما يرسو المجتمع فوق أرض متينة. والعوامة تتأثر لوقع أي قدم بينما المجتمع ثابت مكين لا يتغير أبداً ولا يتأثر، والعوامة جزيرة صغيرة بينما المجتمع عالم منفتح يتصل بالعالم أجمع، والعوامة مهددة بالغرق والكفر، والمجتمع ينعم بصلابة موقعه وايمانه، وفي العوامة هامش من الحرية، وفي المجتمع عبودية وانسحاق يهدد كل من يجرؤ على تخطي أبعاده. ولكن الطابع الذي يميز هذين العالمين هو بلا شك طابع التكامل، فعالم العوامة امتداد للمجتمع وإكمال له ولدوره. فالعوامة امتداد للأرض الصلبة فوق الماء، وهي ليل هذا المجتمع وخيال واقعه، وهي هامش حريته الوحيد وسوق استهلاك المخدرات التي ينتجها، فعالم العوامة في عمقه صمام الأمان الذي يتيح للنظام أن يبقى، ولذلك نراه يسمح به ويراقب المفيق لا «المسطول»، لأن المفيق هو الخطر الحقيقي.

- عم عبده: إن الشخصية التي توضح العلاقة الحقيقية بين المجتمع والعوامة بكل ابعادها هي عم عبده، فهو أحد افراد المجتمع لكنه يعيش في العوامة، وهو لا يتعاطى التحشيش لكنه يشتريه ويعد ماء الجوزة ويحضر القهوة لأنيس كما أنه يشرف على العوامة ويقيها من الغرق.

شخصية عم عبده تثير الاهتمام لبعدها الرمزي، فهو يمثل الشعب المصري، فالتعابير التي يوصف بها تشير بوضوح إلى أنه نموذج للرجل الشعبي وتجسيد لواقع الشعب، فهو ضخم، ويُشبّه بأنه شيء عريق القدم ولا يستطيع أحد أن يقدر عمره، وقد جاء من مكان ما، و «كان يسعى فوق الأرض قبل أن تغرس أول شجرة في شارع النيل» ص١٥، وهو قوي جداً لكنه «قوي وضعيف وهو موجود وغير موجود» ص ٦٥. ولو شاء لأغرق الجميع وسلب كل النساء وهو لن يموت كما «أن العالم في حاجة إلى رجل في عملاقيته لتستقر سياسته» ص ٣٠. عم عبده الذي يجسد مفهوماً عن الشعب المصري أو رؤية له، يحتوي على جوانب مهمة جداً يجب التوقف عندها:

١ - عم عبده هو الذي يشتري المخدر ويجده بشق النفس ويمتنع بمظهره البريء عن رجال البوليس، فهو يساعد على ايجاد عالم العوامة.

٢ - عم عبده لا يعمل بل يعيش لقاء خدمته لأسياده وهو يتزلف إليهم كي لا يطردوه فينقطع رزقه، إنه يقول بكل صراحة «أنا خادم السادة» ص ١٨.

٣ - عم عبده المؤمن والذي يؤم المصلين في المسجد لا يتورع عن شراء المخدر وعن التفتيش عن موس لأنيس، حتى وإن كان قد توضأ استعداداً للصلاة.

٤ - يعترف عم عبده أنه الحبال والفناطيس وأن العوامة تغرق إن سها عنها.

٥ - كان عم عبده سيغرق العوامة ويقتل بالتالي أنيس مع الجميع، فالشعب عادة لا يهتم بحقيقة المشاكل، بأسبابها ومثيريها الحقيقيين، بل يفضل أن يتخلص من الذين يثيرون الشعب ويعكرون بالتالي صفو حياته وأمنه، بدلاً من أن يبحث عن الحقيقة ويقف إلى جانب العدل أو على الأقل إلى جانب مصلحته الحقيقية.

٦ - عم عبده، المؤمن الذي يرى كل ما يجري في العوامة، لم يقل إن الشيطان قد لعب بأفرادها إلا عندما تشاجر رجب وأنيس، أي عندما تهددت مصلحته هو وأمنه. فانكشاف أمر رواد العوامة يتلوه انكشاف أمره هو ودوره فيها.

٧ - من الإشارات البالغة الدلالة أن عم عبده يحضر القهوة لأنيس الثائر ويصر على أن يشربها لتهدئته أي لإزالة كل الرفض الذي أعلنه أنيس، ولإعادته إلى خموله الذي يعيد أمن عم عبده، دون أن يدري أن في ذلك عبوديته. مما يدل على عمق استلاب عم عبده.

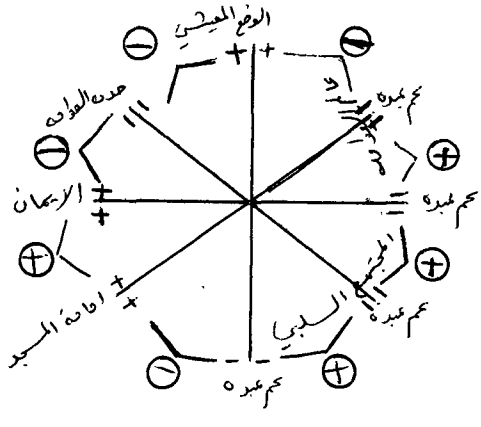

٨- عم عبده محصور في دائرة نصفها يتشكل من مجتمع سلبي والنصف الآخر من عالم العوامة. وهو ممزق بين خطين أساسيين، الايمان والوضع المعيشي وهو موزّع بين إمامة المسجد وخدمة العوامة، مما يجعله في وضع دقيق جداً. فهناك أربع علامات ايجابية (+) وأربع علامات سلبية (-) مما يعني أن أي تغيير يطرأ على وضعية عم عبده قد يؤدي إلى إفقاده التوازن الذي يتيح له الحياة. ومن هنا نفهم جهوده لتثبيت الوضع ومقاومته كل تغيير.

٤- الوضعيات الثابتة:

في الرواية العديد من الوضعيات الثابتة، التي تحافظ على نفسها خلال السياق، فلا يطرأ عليها أي تعديل. وهذه الوضعيات تكاد تطغى على الرواية وتمنحها طابعها. مع العلم أن هذه الوضعيات الثابتة قد تكون ذات علاقة طردية مع عدد الأشخاص - المفاهيم.

٤ - ١ الثنائيات التكاملية:

٤ - ١ - ١ ثنائية ليلى/ خالد أو الهزيمة/ النصر الممكن.

ليلى هي الهزيمة الكاملة، الفتاة التي تخلى عنها حبيبها ومجتمعها وخالد من رواد العوامة، وله فلسفة خاصة ويتوق إلى الاباحية في مجتمع محافظ ومقموع. وهكذا بين الهزيمة الكاملة في الحب والحرية الجنسية للمرأة وبين الاباحية كحل لأزمة اجتماعية تبرز العلاقة بين ليلى وخالد كتجسيد لهزيمة المرء وعدم قدرته على الوصول إلى كل طموحاته، والرضا بالنصر الوحيد الممكن، أي تحقيق جزئي للطموح الذي خضع لتغير كبير في نوعيته وماهيته.

٤ - ١ - ٢: ثنائية سنية/ علي أو الفشل/ الأمل الشاحب.

سنية تجسد فشل المرأة في حياتها الزوجية وتعرضها لخيانة زوجها، وعلي لم يجد عند زوجتيه ما يبحث عنه ولكنها لا يرضيان بالفشل، فلم تقبل سنية بالسكوت على خيانة زوجها بل هجرته ولم يقبل علي بالكف عن البحث عن مدينته الفاضلة. فتخلص العلاقة بين علي وسنية اذن، هذا الفشل المزدوج والتطلع إلى الأمل بغد أفضل، فتهجر سنية زوجها وتأتي إلى حبيبها، ويهجر علي مجتمعه ويأتي إلى العوامة وإلى سنية، فينعم الاثنان بشيء من الأمل الشاحب، فسنية تأمل أن يطلق علي زوجتيه (كان زوجها على علاقة بامرأة واحدة) ويأمل علي أن يجد يوماً مدينته المثالية.

العناد اليائس

لا يطالعنا المجتمع إلا بصورة قاتمة سوداء مليئة باليأس والاقلاع عن كل محاولة لتصحيح الأوضاع السيئة، ويعكس هذه الحقيقة نموذجان، رفاق أنيس في العمل الذين تكيفوا مع الوضع، فرضوا بعملهم التافه وتزلفوا إلى رئيسهم في محاولة فردية للنجاح. والمرأة التي انتحرت لخلاف مع عشيقها، معلنة بذلك عدم وجود أي أمل بتحقيق ما تطمح إليه. وفي المقابل تطالعنا العوامة التي تمثل محاولة أخرى للخلاص وإن بشكل وهمي، وتقدم نموذجين أيضاً، أولهما أنيس الذي يرفض العمل وظروفه ويتابع محاولة الخروج وإن عبر اللجوء إلى المخدر، وثانيهما سنية التي تهجر زوجها عند خيانته لها وتنتقم لكرامتها عبر علاقتها بعلي السيد في محاولة جديدة للوصول وإن كانت محاولة يائسة. فتجسد هذه الثنائية اليأس والعناد اليائس الذي يرفض الاقلاع عن كل محاولة بل يصر على متابعة البحث رغم قناعته بعدم الوصول.

٤ - ٢ الثنائيات المتماثلة

٤ - ٢ - ١ ثنائية رجب/ سناء، أو الاستغلال والوصولية

إذا كان رجب يستغل وضعه كممثل جميل جذاب وحاذق بأمور الغرام والجنس فإن سناء تستغل وضعها كأنثى جميلة ومشتهاة، وإذا كان رجب مستعداً للتعهد بكافة الوعود واستغلال كل فنون جذب الأنثى للحصول عليها وبالتالي التهامها فإن سناء أيضاً مستعدة لاستغلال كل أنوثتها طمعاً يسهل لها الوصول إلى غايتها، وهكذا يلتقي الإثنان في علاقة حميمة خلال سعيهما للوصول إلى أهدافهما ثم يفترقان عندما تكف هذه العلاقة عن أن تكون طريقاً للهدف المنشود. ويتابع كل منهما طريقه بالأسلوب نفسه: الاستغلال والوصولية.

٤ - ٢ - ٢ ثنائية أنيس/ العوامة، أو الوهم.

خروج أنيس من المجتمع وعليه، ولجوؤه إلى عالم العوامة هو كعالم العوامة نفسه وهم، فأنيس يصطدم بعلاقات الكبت والإستغلال والقمع والعنف في عالمه الجديد أيضاً، فالعوامة نفسها التي تطمح إلى أن تشكل عالماً صغيراً يجمع بين افراده تتكشف عن علاقات متناحرة هشة لا تملك أن تقدم بديلاً للمجتمع.

٤ - ٣: الثنائيات التناقضية

٤ - ٣ - ١ ثنائية أنيس/ سناء أو الجماعة/ الأنا

أنيس وسناء على طرفي نقيض، فهو ثوري شارك في التظاهرات، أي في ايجاد حل جماعي لطموحاته. وهي يشدها بريق التمثيل ولكن لا نلمح أنها تحمل أي رسالة تودّ أن توصلها إلى مجتمعها بل نشعر أنها تودّ أن تحظى بنعيم أن تكون ممثلة، فهي اذن تسلك طريقاً فردية جداً، إذ تريد أن تجعل جسدها طريقاً إلى التمثيل، والتمثيل من حيث هو فن الجماعة طريقاً إلى جسدها. فلا يعود هناك أي امكانية للالتقاء بينها وبين أنيس، بل إن الافتراق ميزتها الاساسية، فتتناقض نظرة كل منهما إلى التاريخ والمجتمع والمستقبل، ويمتنع أنيس عن مغازلة سناء.

٤ - ٣ - ٢ ثنائية أنيس/ المجتمع، أو الحلم/ الواقع.

أنيس حلم يتبدد كل يوم تحت أشعة الواقع المحرقة، أنيس يطمح إلى أن يصل يوماً إلى مجتمع جديد، وبالتالي إلى معايير جديدة وعلاقات مختلفة أكثر عدالة، والمجتمع يصر على أن يبقى كما هو، فيحافظ على معاييره ويرسخ علاقاته الجائرة. أنيس توق إلى مستقبل مختلف، والمجتمع واقع ماضٍ يتكرر ويأمل أن يتكرر إلى الأبد.

٤ - ٤ الثنائيات التناحرية: سمارة/ العوامة، أو الجدية/ العبث

مجيء سمارة إلى العوامة لم يكن عابثاً بل كان هادفاً، فهي قد جاءت حاملة معها مفاهيم الجدية وارادة الفعل والفعل، لتقارع مفاهيم العوامة العبثية، وارادة اللافعل واللافعل، لكنهما ليسا على طرفي نقيض، فسمارة تعترف أنها تشعر أحياناً بالعبث، كما أنها تلتقي مع افرادها في اعتناق مبدأ اللافعل بعد الجريمة، لكنها لا تتخلى عن دعوتها إلى الفعل والجدية والايجابية.

مجيئها إلى العوامة حوّل هذه الأخيرة إلى حلبة صراع، فازت سمارة في الجولة الأولى عندما جذبت افراد العوامة إلى الخارج وخسرت الجولة الثانية عندما فشلت شخصياً في اتخاذ موقف ايجابي. وإذا كان هذا الصراع قد أسفر عن تدمير العوامة فإن هذه النتيجة ليست إلاّ جزئية وموقتة، فهناك العديد من العوامات راسية على الرصيف، كما أن مجلس العوامة قد يجتمع مجدداً فهو لم يدمر كمفهوم، ولم يقتلع من رؤوس أصحابه. وهكذا حافظت هذه الثنائية على طابع التناحر بين الجدية والعبث.

٥ - الوضعيات المتفاعلة:

٥ - ١ : الثنائيات التماثلية

٥ - ١ - ١ ثنائية أنيس/ سمارة، أو الفعل المنهزم

كانت وضعيتا أنيس وسماره متناقضتين في البداية، فسمارة أكملت دراستها الجامعية وتعمل في ميدان الصحافة وتطمح إلى أن تكون أديبة، في حين أن أنيس لم يستطع إكمال دراسته الجامعية، ويعمل في وزارة الصحة عملاً تافهاً، لا يمت إلى طموحاته بأي صلة، وقد أعلن الكف عن أيّ شروع، وراح يمضي حياته ذاهلاً مخدراً قواه، كي لا تنفجر فتودي به.

لكن الاثنين دخلا في علاقة جديدة بعد اقتحام سمارة للعوامة واطلاع أنيس على ملاحظاتها وخاصة ما كتبته عنه، فدخل في علاقة متناحرة معها حين رد على ملاحظاتها مؤكداً تفاهتها، ومن ثم طبع التكامل علاقتهما عندما دعم أنيس مواقفها ووقف في مواجهة أفراد العوامة، مؤكداً على ضرورة تحمل المسؤولية لينتهي الاثنان بعد ذلك إلى وضعية التماثل: إلى الفعل المنهزم. فسمارة فشلت في اكمال الخط الذي داومت على رسمه والدفاع عنه والدعوة إليه، وأنيس الذي انهزم سابقاً لم يتلاف الهزيمة الجديدة، بل عاد إلى تأكيد وضعه السابق، وبالرغم من تأكيد سمارة أنها عازمة على متابعة الطريق، فإن هزيمتها تنفي امكانية قيامها بأي عمل ايجابي، وهو ما يوضحه تجمدها مع أنيس في الثلاّجة في حلم هذا الأخير.

٥ - ٢ الثنائيات التناحرية

٥ - ٢ - ١ ثنائية أنيس/ المدير العام، أو الثورة/ التسلط

الثورة التي نادى بها أنيس ثورة جذرية قادرة أن تغير المجتمع، وعندما خاب أمله، غادر الواقع إلى عالم وهمي، مصراً بذلك على عدم التخلي عن مبادئه، رغم اليأس الكبير الذي يشعر به. أما المدير العام، فهو قمة الاتجاه السلطوي الساعي إلى نجاح الأنا، دون أي اهتمام بالآخرين، فهو لا يهتم بتحشيش أنيس ولا ينزعج منه إلا عندما يؤثر ذلك على تنفيذ العمل الذي يأمر به. أنيس المخدر القوى، الهائم في عالمه الوهمي، لم يخرج عن حدود التناقض مع رئيسه، وإضمار الاحتقار له ولعمله العبثي، حتى صحا ذات يوم، وقد تبدد عالمه الوهمي وتأثير المخدر، فلم يحتمل تسلط رئيسه وانفجر في وجهه معمقاً بذلك التناقض بينه وبين ممثل السلطة، عنصر المحافظة على الثبات في المجتمع.

٥ - ٢ - ٢ ثنائية سمارة/ رجب أو الاحباط المزدوج

السمة التناحرية لهذه العلاقة لم تتغير اطلاقاً، ولكن التغيير طال بطليها. فرجب، على امتداد الرواية، حاول استمالة سمارة وافتراسها على عادته ولم يتوصل إلى ذلك، ربما للمرة الأولى. وسمارة، على امتداد الرواية، حاولت اخراج رجب من عالم العوامة ونقل مُثُلها إليه، علّها تدفعه إلى طريق العمل والمسؤولية ولكن بلا فائدة.

ومع انتهاء الرواية، تكون هذه العلاقة التناحرية قد قادت رجب إلى هزيمة أمام امرأة، ربما كانت الأولى في حياته، وهي الأولى في الرواية، وإلى صدم رجل عجوز بسيارته وقتله وبالتالي تهديد مستقبله الفني والاجتماعي، كما جرّت سمارة إلى هزيمة قاسية اضطرت فيها إلى التخلي عن المبادىء التي طالما رددتها سابقاً.

٥ - ٣ الثنائيات التناقضية: ثنائية أنيس/ رجب، أو الأصالة/ الزيف

أنيس في الأربعين وكذلك رجب، لكن الأول يقف في الحضيض والثاني في القمة. أنيس المثقف بشكل موسوعي يعمل بمرتب زهيد ويعيش حياته في فقر وحرمان وكبت، ورجب يتقاضى مئات الجنيهات، بل الألوف ويعيش في بحبوحة من المال والنساء، فهو إلّه من آلهة الجنس، يهجر المرأة تلو الأخرى، دون أي احساس أو شفقة. أنيس رجل ينفر الجميع منه ورجب ممثل يتحلق الجميع حوله. بعد جريمة القتل، يظهر رجب على حقيقته البشعة، مجرماً قذراً أنانياً لا يمكنه أبداً أن يكون البطل الذي فكرت فيه سمارة، وفي الوقت نفسه، يظهر أنيس إنساناً نبيلاً، يعيش أزمة حقيقية، وبطلاً يكمل الخط الذي تراجعت عنه سمارة، فيتصدى لرجب بكل ما يمثله من زيف ودور باهر وبطولة فارغة.

٦ - الأنساق:

في الرواية ثلاثة أنساق هي: الاحباط الثوري والعبث والثورة. وإذا كان المجتمع أو العالم الخارجي بكل ما يحتويه من علاقات، هو الميدان الأساسي للنسق الأول، فإن الذات الإنسانية بمبادئها وقناعاتها هي التي تشكل ميدان النسق الثاني، وبما أن الواقع أسود قاس، والذات الإنسانية مهشمة مرحلياً وتاريخياً، فإن النسق الثالث، نسق الأمل بغدٍ مشرق، ومجتمع يتبنى كل الطموحات التي تراود الفرد المصري المهزوم، لا يمكن أن يجد ميداناً له إلا في الحلم.

٦ - ١ نسق الفعل الخارجي: الاحباط الثوري

يمتد هذا النسق من الذات الإنسانية، بقناعاتها الأولى إلى قناعات جديدة مناقضة للأولى، مروراً بالمجتمع وقضاياه وطموح الفرد المصري، وصولاً إلى الثورة وما بعدها. وفي هذه السيرورة يبرز الاحباط الثوري، الحدث الأهم الذي شكل الضربة القاضية الهادمة لكل البنيان الحلمي السابق وأساس الواقع الجديد، إنه بعبارة أخرى، نسق سقوط أنيس الثوري وتحطمه. يتألف هذا النسق من ثلاث حركات:

١ - الحركة الأولى: أنيس - المجتمع - الالتزام

أنيس، هذا الريفي الفقير الذي جاء إلى القاهرة ليتابع تحصيله العلمي في ظروف صعبة جداً، أنيس هذا الريفي الممتلىء بالطموح ومحبة الثقافة والعلم والذي، عند فشله في نيل الشهادات الجامعية، جاب قاعات الجامعة وحصل ثقافة موسوعية. أنيس، هذا الزوج الذي شهد موت زوجته وابنتها في شهر واحد بمرض واحد، بكل ما يعنيه هذا الموت من أبعاد، كاللاعدالة الاجتماعية وبؤس الطبقات الشعبية الفقيرة. أنيس هذا، لم يحاول ايجاد طريق فردية للخلاص في مأزقه، ولم يحاول الغرق في الأساليب غير المشروعة ليتخلص من مأساته، بل ادرك أبعاد وضعه، فهو يشكل جزءاً من كلٍ، ومشكلته هي مشكلة العديد من أبناء مجتمعه، فانفتح على المجتمع وقضاياه ومشاكل الطبقات الشعبية فيه،. ومن ثم إلتزم بها وتظاهر واعتقل وكاد يقتل في سبيل تأسيس مجتمع جديد.

- الحركة الثانية: أنيس - الثورة الخيبة:

إلتزام أنيس أدّى به إلى التحمّس للثورة تحمساً كلياً، فوضع كافة آماله فيها، وانتظر أن تكون حلاً جذرياً لما يعاني منه هو ومجتمعه، والثورة المقصودة هنا، كما تدل جميع تفاصيل القصة وتاريخ صدورها، هي ثورة ١٩٥٢ الناصرية الاشتراكية، التي قوضت حكم الملك فاروق وسلطة الانكليز واستعادت قناة السويس، وبتعبير آخر، الثورة التي جسدت حلم كل مواطن مصري وعربي بمجتمع مشرق تزول فيه الفروقات الحادّة واللاعدالة الاجتماعية وتتنزه سلطته عن الظلم والعنف والقهر. ولكن سرعان ما تحطمت كل آمال أنيس، إذ لم يحدث أي تغير في المجتمع ولم تحل القضايا المشكو منها وحافظ المجتمع على هويته وبالتالي لم تختف المشكلات الحادة، بل شاهد أنيس بأم عينه، كيف عمل رجال هذه الثورة على استغلالها في سبيل أغراض فردية، فتوجه بقلب ممزق إلى قائدها الكبير، يخبره عن خيانة موظفيه وأكاذيبهم، طالباً منه التدخل لتصحيح مسار الثورة. مع العلم أنه خاطب هذا القائد الذي أصبح اسمه رمزاً لثورة المجتمع العربي، تحت تأثير المخدر، أي عندما حرّره التحشيش من كافة المحاذير، وهي تبلغ من الشدة والعنف أنه لم يجاهر بها، بل بقيت مجرد أفكار عبرت في رأسه، في هذه الحال، لا تعود الخيبة مجرد شعور عابر، بل تكتسب حضوراً لا يرحم.

- الحركة الثالثة: أنيس - العبث العوامة

في مجتمع ينادي بالاشتراكية، وأقسى تهمة فيه هي الرجعية، ومع ذلك تتم كل يوم مصادرة مكاسب الثورة وسرقة أموال الشعب الذي يزداد بؤساً، في مجتمع كهذا، ماذا يستطيع أن يفعل كأنيس، يرفض بعناد كلي أن يتحول عن منحاه الاجتماعي إلى منحى ويصر على الابتعاد عن اشكال الوصولية والاستغلال؟ ماذا يستطيع أن يفعل مثقف يفرّ من حاضره المؤلم إلى ماضيه فيجده حافلاً باحباطات مماثلة وينظر إلى مستقبله فلا يجد أي أمل؟ بل يجد أن العالم بكامله غارق في السواد. في هذه الدوامة، انزلق أنيس إلى العبث، إلى لاجدوى القيام بأي عمل، فلا امكانية للتغيير، فبدت العوامة وعالمها الوهمي الهروبي المتنفّس الوحيد والأخير. فالمخدرات تؤمن له غياباً دائماً رغم حضوره وتقدم له حلم يقظة يغرق فيه، وسعادة ما في عالم لا سعادة لأمثاله فيه.

٦ - ٢ نسق الفعل الذاتي: العبث

يتمحور هذا النسق حول العبث، ولاجدوى القيام بأي عمل في سبيل تغيير ما هو قائم، ومع أن أغلب الأحداث تدور في العوامة، فأن الأحداث الحقيقية التي تؤلف حركات هذا النسق الثلاث، تدور في الذهن، في العقل حيث يتصادم تياران: الجدية والعبث. وتغدو احداث العالم الخارجي وسائل اقناع وبراهين لهذا التيار أو ذاك على صحة منحاه وقوة مبادئه.

- الحركة الأولى: سمارة - المجتمع - الالتزام

سمارة فتاة مثقفة وطالبة متفوقة وصحافية ناجحة، هي الأخرى، انغرست عميقاً في بنية مجتمعها، وأوصلها حسّها الجماعي الخلاق إلى الالتزام بقضاياه والعمل في سبيل الرقي به، ويتجلى هذا الالتزام في آمالها الأدبية وفي نوعية المسرحية التي تنوي كتابتها وفي اختيارها المسرح بالتحديد.

- الحركة الثانية: سمارة العوامة - العبث

التزام سمارة، قادها رأساً إلى اقتحام العوامة، في محاولة لتدمير هذا العالم السلبي، وبالتالي التغلب على العبث الذي يهيمن على عقول رواده.

مع دخولها العوامة، تحوّل مجلسها إلى حلبة صراع بين الإدارة واللاارادة، بين الفعل واللافعل، وقد تمحورت جهود سمارة في مقارعة العبث في اتجاهين، يقوم الأول على مقارعة أفراد العوامة لاخراجهم إلى الفعل الحقيقي ومحو الشعور العبثي الذي يعتريهم، بينما يتحدد الثاني في كتابة مسرحية تحارب العبث وتدعو إلى الفعل الايجابي في المجتمع المصري كله وربما العربي والعالمي أيضاً.

- الحركة الثالثة: سمارة - رجب - أنيس

التزام سمارة بمجابهة العبث، أوصلها إلى رجب، فهو أقل رجال العوامة تهافتاً على المخدر، كما أنه رجل ناجح اجتماعياً، أي أنه البطل المنتظر والشخصية التي ستساعدها في مهمتها، لا

سيا وأنه قد أبدى الاهتمام بها وادعى حبها. وهكذا نشب صراع خفي خلف قناع الحب والاستلطاف، وأخذ كل منهما يحاول استمالة الآخر إلى موقعه، ويقوم في سبيل ذلك بكل ما يستطيع شرط ألا يتخلى عن المبادىء الأساسية. ولكي يكتسب هذا الصراع أهميته القصوى كان ينبغي أن تخرج سمارة من دور الواعظة الممتحنة إلى دور الممتحَنة، كان من الواجب أت تمتحن جديتها ومبادئها التي تدعو إليها أنصار العبث. وقد قدمت الجريمة التي اطاحت برجل عجوز التجربة المثلى لسمارة، فالقتيل رجل تافه والقاتل حبيبها أو بطلها المنتظر، كما أنها كانت موجودة ساعة القتل ومسؤولة لأكثر من سبب فضلاً عن أن تمسكها بمبادئها سيؤدي بها شخصياً إلى نتائج وخيمة، فماذا تفعل؟ بدلاً من أن تطبق المبادىء التي تنادي بها، انهزمت سمارة واعترفت بأنها تشعر أحياناً بالعبث، فوصلت بذلك إلى البطل الحقيقي في العوامة، إلى أنيس الذي أكمل الخط الذي رسمته مبرهناً لها أنه كان بامكانها أن تتابع طريقها الجدية بدلاً من أن تتخلى عنها في اللحظة الحاسمة. وهكذا أكد العبث تجذره وسقطت سمارة، رسولة الجدية ومقاومة العبث، مغلقة بذلك الرواية على انهزام الفعل الايجابي على صعيد الذات، بعد انهزامه على صعيد المجتمع.

٦ - ٣ نسق الفعل المستقبلي: الثورة

العوامة - عم عبده - الثورة

ليس صدفة أن نسق هذا الفعل لا يدور في المجتمع، إذ لا أمل فيه، ولا في حوار المبادىء الحالية لأنها أيضاً عقيمة، لا تجدي، فالثورة المنشودة لن تتم إلا باسلوب مختلف كلية. وهو ما عبر عنه حلم أنيس، وليس مسرحية سمارة الهادفة العقيمة. لقد أدرك أنيس أن الثورة الأساسية لن تقوم بها سمارة، كما لم يقم بها هو شخصياً، وأن الذي سيقوم بها هو في الحقيقة عم عبده، ولكن كيف يستطيع ذلك وهو أكثر اشخاص الرواية استلاباً؟ عم عبده الذي يمثل الشعب وقواه الخارقة، هو الوحيد الذي يستطيع أن يؤسس مجتمعاً جديداً ولكن فقط عندما يعي أبعاد عالم العوامة (أنيس) والمجتمع (سمارة) أي عندما يدرك لاجدوى الاتجاه الجدي الحالي ويزلزل الأرض ليهدمها ويبني من جديد، عند ذلك سيقوم المجتمع الذي ينتظره الجميع. وبانتظار استيقاظ عم عبده، سيظل تيارا الجدية والعبث يتصارعان دون أية نتيجة، وسيتجمدان في مكانيهما دون أن يحققا شيئاً أو يضمحلا.

٧ - حركيّة الرواية

تتحرك الرواية بين نقطتين أساسيتين هما البداية والنهاية وفي كل منهما المعطيات الهامة التالية:

البداية:

١ - الإنسان داخل حجرة مغلقة(أي طبيعة من صنع الإنسان)

٢ - الإنسان المقيد الفكر بعمل تافه.

٣ - إنسان يعمل.

٤ - عدم وجود تواصل مع رفاق العمل.

٥ - الزمن: الصباح.

٦ - يوم كامل تحت تأثير المخدر.

٧ - استدعاء أنيس زكي.

٨ - استكانة خارجية وثورة داخلية.

٩ - افتتحت الرواية جملة سلبية (ابريل شهر الغار والأكاذيب)

النهاية

الإنسان في الطبيعة الأم (الطبيعة التي صنعت الإنسان).

٢ - الإنسان الحر الفكر إلى أقصى الحدود.

٣ - إنسان لا يعمل، يكتشف عبر التأمل.

٤ - انقطاع التواصل مع سمارة.

٥ - الزمن: الليل.

٦ - يوم كامل بدون تأثير المخدر.

٧ - استدعاء أنيس زكي.

٨ - ثورة خارجية واستكانة داخلية.

٩ - اختتمت الرواية جملة إيجابية (فقبض على غصن شجرة بيد وعلى حجر بيد وتقدم....)

وبين هاتين النقطتين، امتدت الرواية، وقد تجسدت حركيتها في الحركات التالية:

- الحركة الأولى: عالم العوامة العبثي

في هذه الحركة المؤلفة من الفصول الأربعة الأولى التي تصور يوماً كاملاً، يتم تقديم تيار شعاره اللافعل، لأنه لا جدوى من القيام بأي فعل. وهي تبدأ في لحظة نموذجية، تفتتح الروايَة، لحظة عمل فرد نموذجي من هذا العالم، مظهرة سلبيته وعمقه من جراء غرقه في براثن التحشيش، أي أنها تبدأ من نتيجة هذا التيار وانعكاساته في قطاع هام من الحياة الاجتماعية: العمل. ثم تقدم لنا مكان التحشيش، فإذا هو عوامة راسية على شاطىء النيل، أي مكان ظاهر من جهة ومنغلق على نفسه من جهة أخرى، فالسفينة كجزيرة فوق الماء أو شبه جزيرة. ثم نتعرف على أفراد هذا العالم ووظائفهم الاجتماعية، فنجد أنهم جميعاً محتومون وبارزون، بل أن بعضهم من المشهورين في المجتمع. ثم يتم تصوير مجلس التحشيش اليومي، الذي تستعمل فيه اداة واحدة « الجوزة »، في ليلة نموذجية، إذ تعود فيها إحدى نساء العوامة إثر تعرضها لأزمة اجتماعية، مما يدل على تأصل عالم العوامة في ذات افراده من جهة وعلى مسؤولية المجتمع في وصول بعض افراده إلى هذا الدرك من جهة أخرى. وفي الليلة نفسها، تنضم فتاة جديدة إلى عالم العوامة مما يدل على حيوية عالم العوامة وامتداده إلى الجيل التالي من المثقفين، كما يوضح لنا هذا الحدث كيفية مجيء النساء إلى العوامة.

- الحركة الثانية: تيار الجدّية

تقدم لنا الرواية، في الفصلين الخامس والسادس تياراً نقيضاً

للتيار الأول، تياراً جدياً يدعو إلى الفعل الايجابي ونبذ اليأس واعتناق الأمل، ونتعرف إليه، كما تعرفنا على التيار الأول، في المكان النقيض لميدانه، مما يؤمن معرفة موضوعية به. سمارة بهجت، ممثلة هذا التيار، على العكس من أنيس زكي، تتمتع باحترام وتقدير في مركز عملها، كما أنها تقوم بدور ايجابي وفاعل في مجتمعها، ولكنها تجمع في شخصيتها نقاطاً مماثلة لأفراد العوامة من حيث نوعية الثقافة والعمل الصحفي والطموح الأدبي والتحرر النسائي، مع العلم أنها أقل حدة من أفراد العوامة وربما أقل عمقاً وهو ما اتهموها به. فالتياران إذن، ينتميان إلى الشريحة الثقافية نفسها والتطلعات الاجتماعية الثورية مما يعمق النظرة إلى هذه الفئة من المثقفين.

- الحركة الثالثة: المجابهة

لم يكن هناك مفرٌّ من أن تنشب المجابهة بين التيارين، وهذه المجابهة في بعدها الأول مجابهة الجدية للعبث ومحاولتها القضاء عليه، وفي سبيل ذلك، لم تتبع سمارة طريقاً سطحية، كأن تبلغ البوليس مثلاً لأن ذلك لن يتيح تدمير عالم العوامة في نفوس أصحابه، بل اختارت خطتها الجذرية ذات الشقين.

أما البعد الثاني لهذه المجابهة، وهو البعد الأعمق والأغنى، فهو تلمس أبعاد هذه الجدية بل محاكمتها وكشف قدراتها واصالتها. وهو ما نجده واضحاً في النقاش الذي ادار دفته المحامي (مصطفى راشد)، وفي اتهامات افراد العوامة لسمارة، وفي تعليقهم على آرائها وخاصة في ملاحظات أنيس حول مسرحيتها وما تضمنته من تحليل، وأخيراً البناء الروائي حيث نجد أن سمارة لم تكتب شيئاً تحت العنوان الذي حددته: ملاحظات هامة. مما يعني أنها لا تملك الملاحظات بعد، ومما قد يفقد الكلمات التي سبقت العنوان أهميتها، لأنها جاءت قبل العنوان وليس بعده.

الحركة الرابعة: المحك

لمعرفة قدرات تيار الجدية على إحداث التغيير الذي يزعمه، والذي يئس افراد العوامة من حدوثه، كان لا بد من تجربة تضع هذا التيار على المحك، فكانت الجريمة النموذجية، في ظروفها وابعادها وتفاصيلها، قابلة إلى حد كبير لأن تفسر بشكل عبثي، إذ لا يوجد أي سبب آخر غير قوة المبادىء وحرارتها تحمل صاحبها على الاعتراف بها، فشكلت بذلك التجربة المثلى لاتخاذ قرار جدي في وضع يسهل الانزلاق فيه إلى القرار العبثي، أو في الحقيقة يسهل فيه إيجاد العذر للفرار من قرار ينسجم مع المبادىء ولكن يكلف الكثير من الثمن، وعلى هذا فإن لجريمة هي المحك لسمارة وليس لأفراد العوامة، فهؤلاء عابثون واتخاذهم قراراً ينسجم مع مواقفهم السابقة ليس مستبعداً أو غريباً، أما الموقف الذي ستتخذه سمارة فهو الموقف الهام. فإذا تقرر تلك التي تنادي بالجدية وبالفعل والإرادة والمسؤولية؟ ماذا ستفعل وكل أقوالها السابقة ومبادئها تدفعها إلى موقف ينسجم مع طروحاتها، أي إلى الاعتراف بالجريمة وتحمل المسؤولية كاملة، لاسيما وأنها رائدة في الدعوة إلى المسؤولية؟

- الحركة الخامسة: عقم سمارة

تنفتح هذه الحركة مع يقظة أنيس الكاملة، في الفصل السادس عشر، وتحرره من أسر المخدر وبذلك يتساوى مع سمارة في حرية الحركة ويصبح مؤهلاً لدعمها في اتخاذ القرار المطلوب أو لمجابهتها وفضحها في حال تخلفها عن ذلك. وقبل حلول لحظة القرار، يخترق الحركة الخامسة عنصر هام وفريد في عالم الرواية هو حلم أنيس الذي قدم لنا رؤية كاملة تقوم على الأمور التالية:

١- ضرورة العودة إلى الروح الدينية الصحيحة واخلاقيتها للقضاء على الآفات المستشرية في المجتمع وأهمها السرقة والزنى.

٢- ضرورة العودة إلى الريف، أي إلى ينبوع الأصالة المحلية البعيدة عن زيف المدينة. أي مركز التأثر بالتيارات الخارجية.

٣- ضرورة التحلي بشراسة المقاومة وعدم السقوط أمام الكثرة المناوئة.

٤- مرارة الحياة ومأساتها والأخطار المحدقة بالإنسان، فقد شبهها أنيس بطريق الجريمة.

٥- شعور أنيس العميق بالمسؤولية وتحليه بالنَفَس الشعبي الجماعي، فقد أشار إلى مسؤوليته في القتل (فصدمنا رجلاً) ونقل القتيل المجهول إلى صورة زوجته ومن الجدير بالذكر أنها ماتت بمرض، وإذا كان سبب الموت لم يكشف لنا، أهو خطورة المرض أم هو نتيجة لظروف اجتماعية سيئة ناتجة عن عدم اهتمام الدولة برعاياها، فإن عملية النقل وموت الطفلة أيضاً يؤكدان مسؤولية الدولة في ذلك، أو بالأحرى تحليها باللامسؤولية تجاه شعبها، تماماً كرجب.

٦- ما يبحث عنه أنيس هو الخصب غير المصادر «سحابة داجنة» ويكتسب هذا التعبير بعده الكبير عندما نتذكر قصة هارون الرشيد، الذي ورد ذكره في الرواية سابقاً، مع الغيمة أيام القحط.

٧- وعي الشعب المستلب ومطاردته افراد العوامة، فعم عبده يختلف كلية في الحلم، إذ لم يعد خادم العوامة، بل هو في صيحته: افتح، يشبه افراد السلطة عند اقتحام مكان مجرمين.

٨- تحجر افراد العوامة في مواقعهم وعدم امكانية قيامهم بأي دور طليعي، فهم سيداومون على تناول المخدر إلى حين مطالبتهم بدفع ثمن ذلك وتحميلهم مسؤولية ما يقومون به (القبض عليهم) أو إلى حين اعتبارهم مرضى ينبغي علاجهم بالقوة.

٩- سقوط سمارة القادم في دائرة اللافعل، إذ أنها ستصبح من افراد العوامة وستتجمد في دورها السلبي إلى حين قيام الثورة - الزلزال الذي سيدمر البناء الحالي.

بعد هذا الحلم، يجابه أنيس المدير العام، ويثور في وجهه رافضاً السماح له مجدداً باهانته، مؤكداً بذلك على ضرورة القيام بما يجب القيام به مهما كان الثمن. ولكن سمارة التي عرفت قصته مع المدير العالم، لم تتخذ القرار المطلوب والمنسجم مع ما كانت

تدعو إليه، رغم أن أنيس برهن لها، عبر تصدّيه للمدير العام أن على المرء أن يكون أميناً لمبادئه مهما كان الثمن. ورغم أنه عندما شعر بتردّدها وميلها إلى عدم اتخاذ القرار المطلوب، برهن لها مجدداً امكانية قول ما يجب قوله. وبذلك ارتفع الاحباط إلى مستوى الشمول بجمعه النقيضين.

- الحركة السادسة: الاصرار

تشكل هذه الحركة خاتمة الرواية، وهي تتألف من المقطع الأخير في الفصل الأخير، وتشير إلى أن مأساة أنيس ليست شخصية فقط، ولا مصرية ولا عربية أيضاً بل عالمية، على مستوى الإنسان، من حيث هو إنسان، وتؤكد اصرار هذا الإنسان قديماً وحديثاً على ارتياد الآفاق مهما كانت النتيجة.

وهكذا في الوقت الذي تغلق الرواية كل أمل، وتعلن اليأس من أي فعل ايجابي إذ يصمّ أنيس أذنيه عن كلمات سمارة للمرة الأولى، وينطلق في تداعيه الباحث عن أساس مشكلة الإنسان. وهو التداعي الأخير في الرواية أي قمة البحث وأساس المشكلة كلها، وفيه تعود الرواية لتفتح الأمل عبر العودة إلى رواية ما تسميه الأديان «الخطيئة الأصلية» التي هي في أساسها محاولة لتجاوز الحدود المفروضة، مشيرة إلى أن طبيعة الإنسان تدفعه دفعاً إلى ارتياد الآفاق مهما كانت المخاطر ومهما كان الثمن، وبعبارة أخرى، مهما بلغت درجة السوء في هذا المجتمع فإن الإنسان لا يملك إلا أن يحاول اقتحامه للخروج منه إلى ما بعده. ومن الضروري أن نشير إلى أن أنيس لا يذكر الرواية الدينية لبدء الحياة البشرية على الأرض بل يتبنى وجهة النظر الداروينية المادية وذلك طبيعي لأنه يود الرد على الإحباط الذي اغرقته منه الثورة الاشتراكية فكان رده من طبيعة الفعل واكتسب بذلك قوة أكبر.

٨- في الأسلوب

٨- ١ ملاحظات حول لغة النص

٨- ١- ١ المفردات

مفردات الرواية مستعملة بمعانيها الاصلية المتداولة في اللغة اليومية، وبين افراد الشعب، وهي تقترب احياناً كثيرة من اللغة العامية بتعابيرها مثل: صح النوم، عقبالك، يا بختك. ولا تشحن بأبعاد رمزية إلا فيما ندر: ابريل شهر الغبار والأكاذيب، فالغبار هنا من حيث هو قذارة ومانع للرؤية شديد الإيحاء بصعوبة الرؤية الصحيحة في المجتمع الذي تصوره الرواية. ورغم أن بين افراد الرواية محامياً وناقداً وصحافية ومترجمة وأديباً وممثلاً فإننا لا نقع إلا قليلاً على مفردات تنتمي إلى هذه الميادين بل مجرد مفردات عادية يستعملها الإنسان العادي، وأكثر ما نقع على مفردات خاصة في خواطر أنيس، حيث تطالعنا بعض التعابير الطبية: المادة الطحلبية، والغدة النخامية، كما نعثر على بعض المذاهب الفنية كمذهب الرسم التجريدي والتكعيبي والسريالي والوحشي. وبعض الألفاظ الثقافية، مثل العبث واللامعقول ودائرة المعارف البريطانية...

٨- ١- ٢: الأسم

أكثر ما يلفت الانتباه ويدعو إلى التوقف عنده اسماء العلم التي نستطيع قسمتها إلى فئتين: أولاً اسماء اشخاص الرواية، وثانياً الاسماء التي ترد في خواطر أنيس زكي وتداعياته.

أ- اسماء الشخصيات.

أ- ١: أنيس زكي: الاسم «أنيس» يعود إلى الجذر الثلاثي: أ،ن،س الذي يثير تداعيات عن الأنس والإنسان والمؤانسة. مما يدل على امكانية الوثوق به والسكون إليه من جهة وعدم ذاتية صاحبه بل رمزيته وشمولية دلالته من جهة ثانية. و«زكي» في الوقت الذي تشير فيه إلى الرائحة الطيبة العطرة إذ ترتبط بكلمة زكي الرائحة، فإنها تدل على النمو والزيادة والخصب، كما أنها تختلط مع كلمة «ذكي» الملفوظة بالعامية، مما يشحنها أيضاً بمفهوم الذكاء.

أ- ٢ سمارة بهجت: تثير كلمة سمارة بجذرها؛ س، م، ر تداعيات عن السمر والسمرة مما يدل على أنها تحمل حديثاً ما تريد قوله، وعلى هويتها المصرية العربية. وكلمة «بهجت» بجذرها: ب، هـ، ج تثير تداعيات عن السرور والفرح والنضارة مما يجعل من «سمارة بهجت» رمزاً للبحث عن السرور والنضارة.

أ- ٣ رجب القاضي: أول ما تثيره كلمة «رجب» أنها اسم أحد أشهر السنة الهجرية وهي بدورها تثير انطباعاً بأنها قد تراجعت في الاستعمال أمام السنة الميلادية، وكلمة «القاضي» مع وجود اداة التعريف تكتسب ابعاد اللقب، كما أنها تستدعي في الذهن امرين: النزاع والحكم فيه فضلاً عن أن ميزة القاضي الأساسية هي العدل. فهل يعني اسم «رجب القاضي»، شخصاً غير عادل، أو حَكَماً ما عاد يستطيع البت بالنزاع؟

أ- ٤ من بين اسماء الاشخاص - المفاهيم يبدو اسم «عم عبده» أكثرها ايحاءً. فالعم هو شقيق الأب، وزوج الأم، ووالد الزوجة فهو في جميع هذه الدلالات بديل للأب أو شبيه به. كما أن كبر سنّه يساهم في اعتباره بديلاً للسلف ككل. وعبده هو اختزال لإسم «عبدالله» حيث تم حذف كلمة (الله) والاستعاضة عنها بضمير الغائب. وفي هذا الاسم أبعاد دينية ودلالات خضوع واستكانة. وفي بقية الاسماء نلاحظ الأمور التالية:

بُعد ديني: مصطفى، أحمد، علي.

بعد عقلي: راشد، الرشيدي.

سلطوي: السيد، المدير العام ورئيس القلم (يلاحظ عدم وجود اسمين لهما بل تم الاكتفاء بلقبيهما).

الرفعة والشأن: عزوز، نصر، كامل، سنية وسناء.

بعد عاطفي: ليلى.

ونشير إلى تشابه بين اسمي سناء وسنية مما يدل على وجود صفة مشتركة بينهما.

ب- ورد في الرواية العديد من الاسماء التاريخية المعروفة، وجميعها ترتبط بنقاط سلبية في التاريخ كالاستبداد أو الظلم أو

العنف، أو جابهت نقاطاً سلبية في المجتمع - خوفو - فيكتوريا (ملكة العصر المحافظ المشحون بالتقاليد) فرعون المتألّه، ابراهيم باشا - انطونيو - كليوباتره - هارون الرشيد - يوليوس قيصر - نيرون. لويس السادس عشر - قمبيز (فاتح مصر) - تحتمس الثالث - حتشبسوت - الحاكم بأمر الله - برومثيوس (مسطولاً) - نابليون (يتهم الانجليز بتسميمه) - جينيه (الفلسفة التي تجمع بين السرقة والسجن والشذوذ الجنسي على طريقة جينيه ص ١٧) وورد ذكر النبي يونس والنبي يوسف والحكيم «ايبو - ور» (الذي نصح أحد الفراعنة) والمعري والخيام وبيكت، وآدم، وحواء، كما ذكر بعض اسماء الجنس التي ارتفعت إلى مستوى العلمية وهي شديدة الايحاء.

١ - المماليك (المستبدون).
٢ - الخلفاء (الذين أودى الافراط بحياتهم).
٣ - الفرس (الذين دالت دولتهم).
٤ - التتار.
٥ - الانجليز
٦ - الاميركان.
٧ - العرب، ولم يذكر الاسم صراحة بل استعيض عنه بالقول «أمة عريقة في النفاق» ص ٩٣.

وأشير بشكل سلبي إلى العصور: الحجري والرومانسي والواقعي والمملوكي والهجرة إلى القمر. وإلى بعض الأحداث التاريخية: مثل تدهور الحضارة الرومانية والغزوات الاسلامية والحروب الصليبية ومحاكم التفتيش ومصارع العشاق والفلاسفة والصراع الدامي بين الكاثوليكية والبروستنتية وعصر الشهداء والهجرة إلى أميركا.

وهكذا نجد أن السواد الذي يشكل سمة المجتمع المصري منذ أيام الفراعنة إلى اليوم، هو أيضاً سمة العالم أجمع قديماً وحديثاً.

٨ - ١ - ٣ الصور الجمالية: لغة النص العادية لا تمتلك صوراً جمالية كثيرة، فليس هناك لغة شعرية والصور المستعملة صور بسيطة ولذلك فإن اللغة تقترب من المنحى التقديري والاستعمال الأولي والبسيط للجمل الفعلية والأسمية. الشيء الوحيد المميز، هو ايراد اسماء وشخصيات ومواقف من التاريخ في سياق النص مما يثير الدهشة والغرابة، ولكن تأملاً كافياً في النص يظهر وجود منطق عقلاني وراء كل ما يرد فيه، مما يتنافى مع كون هذه الأحاديث شطحات فكرية تحت تأثير المخدرات، ولكنه ينسجم تماماً مع رسالة البنية التي لا تريد التحدث عن مجموعة من الحشاشين بل تشريح مجتمع معين في تطلعاته النهضوية. وفي هذا الإشكال مفتاح الرواية.

٨ - ٢ آلية القصّ

تتألف الرواية من ثمانية عشر فصلاً مرقمة في النسخة المصرية (طبعة مكتبة مصر بالفجالة) وغير مرقمة في النسخة اللبنانية (طبعة دار القلم، ١٩٧٢). وغير معنونة في النسختين. باستثناء الفصل العاشر الذي يحمل شبه عنوان: «مشروع مسرحية». ونقول «شبه عنوان» لأنه العنوان الذي صدّرت به سمارة كلماتها التي يقرأها أنيس.

نجد في هذه الفصول التي تدور حوادثها بمعظمها في عوامة راسية على النيل، وصفاً لثمانية مجالس تحشيش ولتاسع لم يتم بل أسفر عن رمي كافة ادوات التحشيش (ونعلم أن المجلس الثاني عقد بعد أسبوع من المجلس الأول أي بعد ستة مجالس لم تصفها الرواية). وقد بدأت فصول الرواية بلحظات زمنية على الشكل التالي: الفجر مرة واحدة، الصباح مرة واحدة، الظهيرة مرّتان، الغروب ثماني مرات، الليل ست مرات. واختتم كل من المجالس الستة الأولى بتداعٍ، فيما اختتم السابع بحوار والثامن بخروج من العوامة وانتهى التاسع بتداعٍ ينهي الرواية بكاملها، التي بدأت في فترة الصباح، في مكان العمل وخلاله واختتمت في الليل. في العوامة، وخلال خطر الصرف من العمل. فامتدت بذلك بين صباح سلبي وظلام يحيط بالأرض والإنسان.

٨ - ٢ - ١ التداعي

في الرواية نوع من التفكير الطليق، لا سيما وأن الشخصية الأساسية أنيس زكي مدمنة على التحشيش، ولكن هذا التحليق الفكري ليس هذياناً أو تهويماً بل هو تداع يثيره موقف معين، لذلك يجب التفتيش في الكلمات التي تسبق كل تداع للعثور على مفتاحه أو بالأحرى السبب الذي أطلقه وحدده. وهو في الغالب موقف يحتوي على خللٍ ما، لطخة سوداء أو سلبية مشكو منها إذ أنها تتعارض مع مبادىء أنيس زكي. فالعم عبده، رجل التناقضات، المؤمن والقواد، يغرق أنيس زكي في تداع عن هارون الرشيد، الخليفة الذي كان يقتل لأتفه الأسباب والذي ألقى آل رسول الله في السجن. مما يشكل قمة في تصوير الحال التي وصل إليها الدين ويكشف حقيقة المنعوتين بالايمان.

كما أن سناء التي تخلى عنها رجب فجلست حزينة، أثارت فيه تداعياً عن رجل عزيز أصابه الذل، ومما يدفع الوضع إلى أعلى قمة له، تشبيه رجب بقمبيز المحتل، وأنيس نفسه بفرعون المهزوم. كذلك في الخاتمة، عندما كانت سمارة تتحدث عن مشكلة أنيس زكي الشخصية، أثارت فيه تداعياً هو الآخر قمة للوضع المعاش، إذ أنه صوّر مأساة الإنسان بشكل عام منذ الأزل وإلى الأبد، فهو غير قنوع ويطمح دوماً إلى اختراق الحدود المفروضة عليه. هذه التداعيات، التي تمتد من جملة إلى صفحة أو أكثر، بحسب الموقف وخطورته وكمية المخدر التي تؤمن كلما زادت تحليقاً أبعد، تصور نقاطاً سوداء في تاريخ الإنسان المصري خاصة، إذ نجد فرعون المهزوم أمام قمبيز وتحتمس الثالث الذي تسلبه اخته حشتبسوت الملك، وفرعون الذي لا يدرك حقيقة ما يجري من مظالم في البلاد، ويونس الذي أنقذه الحوت من القرية الضالة ويوسف الذي ترتبط صورته بصورة السنوات العجاف في مصر. كذلك نجد كليوباتره أمام يوليوس قيصر المنتصر ومع أنطونيو المنهزم، وهارون الرشيد الطاغية. ومن الجدير بالذكر أن هذه الصور ليست منتزعة من التاريخ تماماً، بل هي صور معقولة، قد تكون حدثت. ولكن المهم أنها مركبة تركيباً حلمياً للدلالة على وضع آني، مما يكسبها طابع الرؤيا من جهة وطابع

فضح الحاضر والماضي معاً وبصورة فعالة من جهة ثانية. كما أن اعتماد هذه الطريقة في التعبير يشير إلى وجود محذور يمنع أنيس زكي من الكلام بحرية، ونستطيع أن نستشف طبيعة هذا المحذور في دلالات هذه التداعيات، فهو مثلاً استبداد السلطة في تداعي هارون الرشيد، وهو وجود حواجز بشرية بين الرئيس والمرؤوسين في تداعي الحكيم أبيو - ور. تكذب على الأول وتمنع عنه حقيقة ما يجري وتظلم الآخرين وتستغل الثورة لمكاسبها. وهو كشف البعد العميق لحدث ما. كما في تشبيه حالة ليلى زيدان التي آمنت بحرية المرأة وطبقتها، براعية غنم في عهد خوفو لدغها ثعبان وقضى عليها. ولا ننسى أن الثعبان هو بديل للقضيب. ومشكلة ليلى أن رجب افقدها عذريتها. مع العلم أن التداعي قد يكون لأكثر من سبب. كأن يكون لسببين أو للأسباب كلها.

٨ - ٢ - ٢ الحلم

إلى جانب اسلوب التداعي، تستخدم الرواية اسلوباً آخر هو اسلوب الحلم الذي يحدث في ظروف خاصة جداً:

١ - يتم هذا الحلم وأنيس متحرر من تأثير المخدر.

٢ - يتم نهاراً وفي مكان العمل وخلاله.

٣ - يأتي هذا الحلم في قمة التوتر والبحث عن موقف ينسجم مع المبادىء، ولذلك يكتسب هذا الحلم معالم الرؤيا واستشراف المستقبل، ويصبح مضمونه الحقيقة الآتية أو تجسيداً لطموح الأنا وتفاصيل تطلعاتها ورؤيتها لحل المشكلة العالقة. ومن الجدير بالذكر أن توقيت الحلم ذو أهمية قصوى، إذ أنه سبق قرار سمارة فسمح له موقعه أن يُعرض على محك التجريب. وقد برهنت الأحداث على صدق النبوءة التي يتضمنها بخصوص سمارة، وهو ما يكسبه قوة أكبر في الأمور التي لم تقع بعد.

٨ - ٢ - ٣ ضمير القصّ

طريقة القصّ التي تستعمل صيغة المفرد المذكر الغائب تشير إلى أن هناك راوياً للأحداث هو الأديب نفسه. ولكن بما أنه يلتزم بزاوية أنيس ويلتحم به فإنه يتحد معه، ويكتسب ملامحه الأساسيه: الاحباط. مما يفسر لنا اختياره لهذا العنوان بالتحديد: ثرثرة فوق النيل، أي أنه مقتنع أن الرواية لن تستطيع فعل شيء، وبالتالي لن تكون أكثر من ثرثرة، كما أن احاديث اشخاصها على النيل، لن يعتبر أكثر من ثرثرة. وهكذا يعلن لنا نجيب محفوظ الذي ساهم إلى حد كبير عبر رواياته العديده في تلمس معالم النهضة العربية، يعلن لنا بعد كل الروايات التي كتبها خيبته الكبرى واحباطه.

ولكننا نجد في فترات معينة وحساسة، ضمير المخاطب، حيث يخاطب أنيس نفسه ويستعمل ضمير «أنت»، كما في تداعي هارون الرشيد مثلاً «وأنت تصب له الخمر من إبريق من الذهب. ورق أمير المؤمنين حتى صار أصفى من الهواء وقال لك: هات ما عندك..» (ص ٤٩)، مما يتيح أن يكون الحديث موجهاً للمتلقي وبالتالي دمجه بشخصية أنيس والراوي وبذلك دفعه إلى الشعور بالاحباط الذي يسحق الاثنين روائياً والثلاثة فعلياً.

٩- معالم البنية وتطوراتها

البنية التي تقدمها الرواية تتألف، ليس بشكل تراكمي، من معالم معينة تحدد أطرها وهويتها. فما هي هذه المعالم؟ ما هو الأفق الذي تتطلع إليه؟ وهل توصلت إليه؟

١ - طالعتنا في الرواية ثورة مصادرة ترخي ثقلها على المجتمع، ولمسنا رغبة عنيفة لدى المثقفين في الخلاص منها ولا مبالاة الافراد العاديين بما يجري، وقد تجسّد الأفق في محورين: الأول هو إدراك قائد هذه الثورة حقيقة ما يقوم به اعوانه، والثاني هو حلول ثورة بديلة جذرية وذات طابع ديني. مع التأكيد أنها ليسا طريقين مختلفين بل هما خطوتان متكاملتان. ففي تداعي تحتمس الثالث دعوة صريحة للتخلي عن اخته حتشبسوت والانفراد بالحلم. فمن هي حتشبسوت التي قصدتها الرواية؟ هل هي روسيا بكل ما تمثله؟ إن البحث عن قرينة لن يصل إلى شيء ولكن النص بكامله يؤكد ذلك، عبر مطالبته الرئيس بالقيام بثورة بديلة ذات وجه ديني محلي. ولكن الرواية انغلقت دون أن يتم أي تغيير.

٢ - المجتمع القائم هو المجتمع المصري بين ١٩٢٤ و ١٩٦٤ أي بعد ثورتي ١٩١٩ و ١٩٥٢، وقبل هزيمة ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣، وهو مجتمع مصاب بشروخ عميقة، فربيعه غبار وأكاذيب، ومع ذلك فهو مجتمع متواطىء وسلبي، إذ أنه في انتظار التغيير يغرق في الفردية والانتهازية والتزلف والعبثية.

افق هذا المجتمع، مجتمع جديد أكثر عدالة وفعالية، ولكن الرواية انتهت دون حصول أقل تبديل في بنية المجتمع.

٣ - عالم العوامة ببأسه وعبثيته عنصر بارز في المجتمع. ورغم وجود تصدٍّ كبير له، حتى أن ثورة سمارة قائمة في أساسها على مواجهة العبث، فإن عالم العوامة يبقى راسخاً، فالعوامات تملأ شاطىء النيل.

٤ - العلاقات بين الافراد علاقات هشة، افقها المصلحة الفردية، فعلاقة الرجل بالمرأة تتوزع في ثلاث فئات هي الخيانة والاستغلال والكبت. وعلاقة الرجل بالرجل تتحدد بالسيطرة أو التزلف أو الوصولية. وعلاقة المرأة بالرجل إما أن تؤدي إلى حب فاشل أو انتقام أو وصولية أو انتحار. وعلاقة المرأة بالمرأة علاقة سلبية قائمة على الغيرة أو الحذر أو التشفي. وتنتهي الرواية دون أي تغير في طبيعة هذه العلاقات.

٥ - علاقة واحدة تتميز بإيجابية محدودة، هي علاقة أحمد نصر المؤمن بزوجته، ولكن الرواية لا تقدم أي تعليل حاسم لوجود الزوج في العوامة، كما أن أي تغيير لا يطرأ على هذه العلاقة.

٦ - السلطة في هذا المجتمع جهاز قمعي عنيف، ويعكس ذلك بوضوح علاقة المدير العام بأنيس. ففي الوقت الذي لا يهتم فيه بسبب لجوء أنيس إلى التحشيش، يحيله إلى النيابة الادارية تمهيداً لفصله من العمل لأنه صرخ في وجهه ورماه بالنشافة. ولا تهتم هذه السلطة بالمجتمع بل تهتم بالمحافظة على نفسها كما يبدو ذلك واضحاً من مراقبتها المفيقين لا المساطيل، لأن أي خطر حقيقي سيترعرع في صفوف المفيقين الذين لم يقبلوا بعالم العوامة كحل لما يعانون منه. ويتجسد الأفق في أن يعي الرئيس حقيقة ما يجري، ولكن ذلك لم يحدث.

١٠ - رسالة البنية

تتألف الرسالة التي تحملها البنية من الاشارات التالية:

١ - المجتمع المصري مصاب بشرخ عميق وفي حالة خطيرة من السلبية.

٢ - احباط الإنسان المصري ليس آنياً فقط بل هو شامل كل الفترات التاريخية.

٣ - الثورات في هذا المجتمع تحور دائماً عن مسارها، مما يؤكد عبثية كل محاولة اصلاحية فيه.

٤ - المسؤول عن التحريف ليس الرئيس عبد الناصر (الذي لا تسميه باسمه الرواية) بل هو الجهاز الذي يعتمد عليه.. وقد برهنت جميع الأحداث التي تلت، من هزيمة حزيران، إلى الحالة التي وصلت إليها مصر بعد وفاة الرئيس عبد الناصر وما ترتب على ذلك من وصول الجهاز المشكو منه إلى قمة السلطة وقيادة الثورة - اظهرت هذه الأحداث كلها مدى الرؤية الاستشرافية التي تتمتع بها هذه الرواية.

٥ - الثورة الحقيقية سيقوم بها الشعب.

٦ - زيف ايمان مدعي الايمان وضرورة العودة إلى الروح الدينية الصحيحة.

٧ - عجز المثقفين عن لعب أي دور طليعي.

٨ - أهمية التضحية دون المطالبة بثمن مباشر. والسؤال الذي يطرح نفسه علينا بقوة هو: أليس من السخف أن تعترف سمارة بهذه الجريمة؟ إن جواب القارىء بالايجاب يدل على مدى السلبية التي تسيطر عليه. وهنا يبرز السؤال الثاني: من هو القارىء الذي شعر بأن على سمارة أن تعترف مهما كان الثمن؟

١١ - ملاحظات:

بعد معرفة ما حدث، يصبح السؤال الهام هو: لماذا حدث ما حدث؟ وهو ما نحاول تلمسه في هذه الملاحظات.

١ - ثورة أنيس ليست ثورة متكاملة بل هي شعور مثقف من أجل الجماهير ولها، وليس معها وبها.

٢ - لا نلمح أي تواصل لأنيس مع الفئات الشعبية رغم كونه أحد افرادها. فنشاطه اقتصر كما صورته الرواية على المشاركة في التظاهرات، وقد تكون طالبية لاسيما وأن مصطفى راشد كان معه، وعلى التعرض للاعتقال والقتل قبل الثورة. ثم لا نجد أيّ توصل مع افراد المجتمع بعد يأسه من الثورة.

٣ - علاقة أنيس بعم عبده لم تخرج أيضاً عن هذا الاطار، فالشعور الايجابي الوحيد الذي نقع عليه في الرواية هو احساس أنيس بالشفقة على عم عبده وعزمه على تزويده بغطاء قبل الشتاء، في حين أن عم عبده يسكن في غرفة حقيرة، لا تكاد تسعه، عندما يقف يعلو بهامته سقفها، مما يجعله شبيهاً بكلب.

٤ - تنتمي سمارة إلى الشريحة الثقافية نفسها، فاتصالها بأفراد المجتمع يتم عبر مقالاتها، واحتكاكها بالعمال كان على شكل زيارة لكتابة مقال بلا شك، وهو ما يعمق النظرة إلى هذا التيار الثقافي، ولكنه يفقر الرواية، لأننا لا نجد منحى مختلفاً، وهو ما يجد تبريره في كون الرواية تغوص في عمق تيار ثقافي نهضوي ولا تدعي تصوير كافة التوجهات.

٥ - تعتمد سمارة على اصلاح الافراد لإصلاح المجتمع، عاكسه بذلك المنحى الثوري، وهو ما اتهمها به افراد العوامة.

٦ - تعتبر سمارة العبث سبباً لفساد المجتمع، بينما هو في الحقيقة نتيجة لأسباب عميقة، ولا شفاء من هذا الشعور العبثي إلا بمعالجة الأسباب التي تأتي عنها. وقد حدد مفهوم سمارة الخاطىء مسارها الثوري فتوجهت لمقارعة عالم العوامة بدلاً من المجتمع وسلطته.

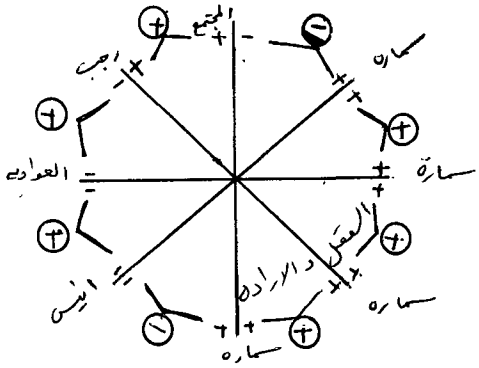

٧ - حقيقة وضع سمارة تختلف كلية عن نظرتها إليه. فالمجتمع سلبي في عمقه نتيجة لاستلابه. وسمارة تمتلك جانباً سلبياً، في حين أن أنيس يمتلك جانباً ايجابياً. وبذلك نجد أن الوضعية الحقيقية لسمارة هي ست علامات سلبية (-) وعلامتان ايجابيتان (+)، مما يقلب الوضعية إلى العكس تماماً ويظهر أن سمارة منذ البداية غير مؤهلة للعب أي دور.

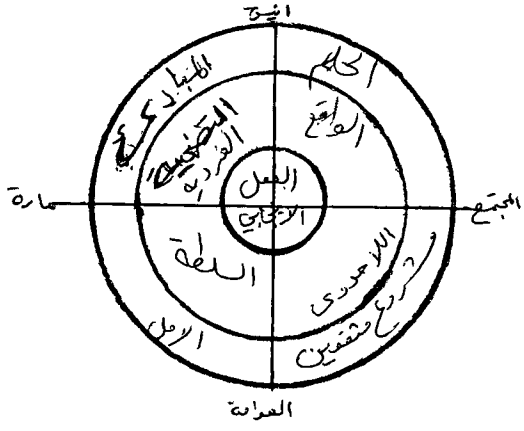

٨ - الاحباط الذي ازداد عدده مع احباط سناء وسمارة ورجب يتعلق بقناعات المجابهة وكيفيتها ونوعيتها وماهيتها. فإذا كان من البديهي أن يقف الواقع حاجزاً بين الحلم وتحققه، وأن تنتصب السلطة في وجه آمال الفئات الشعبية، فإن تحقيق المبادىء يقتضي تضحية وهو ما لا نلمحه عند أنيس أو سمارة. فالاعتراف بالجريمة تقتضي تضحية فردية، ليست عبثية، بل بها يتم انقاذ المبادىء. فأنيس وسمارة اللذان يرفضان الوصولية والأنانية والأساليب الفردية للوصول يرفضان كذلك التضحية الفردية لأنها لا ترتبط بثمن مباشر في أحسن الأحوال. كما أن اللاجدوى التي تكون الرؤية ناتجة بدورها عن مشروع مثقفين وليس عن تحرك الجماهير التي لا تعرف حركتها اللاجدوى بدليل سيرورة التاريخ البشري بكامله.

بيروت